حكايات جزائرية

لونجا

دوّنها : رابح خدّوسي
عائشة بنّور

رسم : شريف أجاوود

obeikandl.com

لونجا

لُونْجَا الفَتَاةُ السِّحْرِيَّةُ القَادِمَةُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ، الفَتَاةُ ذَاتُ الجَمَالِ الرَّائِعِ الَّذِي بَلَغَت شُهرَتُهُ الآفَاقَ، لاَيَتَزَوَّجُهَا إلاَّ الشَّابُّ الَّذِي يُدَافِعُ عَنْهَا وَيَدْفَعُ مَهْرَهَا الغَالي.. وَهُو المُخَاطَرَةُ بِحَيَاتِهِ وَسَطَ الأَهْوَالِ.. !!

لُونجَا صَارَتْ حُلُمَ الشَّبَابِ،، يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ نيلَ رِضَاهَا لِيَتَزَوَّجَهَا، لَكِنّ «مَزَارِهَا بَعِيدٌ وَدُونَ ذَلِكَ أَهْوَالٌ»، وَلاَ يُغَامِرُ بِنَفْسِهِ إلاَّ الشُّجَاعُ الَّذِي لاَ يُبَالِي بِالمَوْتِ مِنْ أَجلِهَا.

كَيْفَ بَدَأَت قِصّتُهَا؟

فِي قَلْعَةٍ عَظِيمَةٍ تُضَاهِي السَّمَاءَ،، يَعِيشُ المَلِكُ وَزَوْجَتُهُ وَابْنُهُمَا الوَحِيدُ الأَمِيرُ زَهَّار الَّذِي خَرَجَ يَومًا فِي نُزْهَةٍ بَيْنَ الحُقُولِ.

كَانَت عَجُوزٌ تَقِفُ قُرْبَ بِئْرٍ عَمِيقَةٍ تَمْلأُ جَرَّتَهَا، لَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهَا الأَمِيرُ زَهَّار عَلَى جَوَادِهِ الأَدْهَمِ، وَدَنَا مِنَ البِئرِ، ثُمَّ ابْتَسَمَ فِي وَجْهِ العَجُوزِ، قَائِلاً لَهَا:

- طِبْتِ، هَلاَّ فَسَحْتِ جَانِبًا مِنَ المَكَانِ حَتَّى يَشْرَبَ الحِصَانُ...؟

نَظَرَتْ إِلَيْهِ مُقَطبَةَ الحَاجِبَيْنِ، وَقَالَتْ:

- أَحَسِبْتَ أَنَّكَ بِشَجَاعَتِكَ وَجَمَالِكَ الَّذِي تَتَرَنّحُ بِهِ هُنَا وَهُنَاكَ عَلَى جَوَادِكَ، تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ؟! مَنْ تَكُون أَمَامَ لُونجَا الفَاتِنَةِ؟!.

تَعَجَّبَ الأَمِيرُ الشَّابُّ زَهَّارُ مُسْتَغْرِبًا أَمْرَهَا وَعَادَ مِن حَيْثُ أَتَى حَائِرًا، مَشْغُولَ البَالِ، شَارِدَ الفِكرِ يَسْأَلُ وَلاَ يَجِدُ جَوَابًا لِسُؤَالِهِ، حيْرَتُهُ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوم...

وَلَمَّا نَفِدَ صَبْرُهُ أَرْسَلَ حُرَّاسَهُ لإِحْضَارِ الدَّاهِيَةِ، وَمَا هِيَ إِلاَّ سَاعَاتٌ حَتَّى كَانَتِ العَجُوزُ أَمَامَهُ، وَرَوَتْ لَهُ حِكَايَةَ لُونْجَا ابْنَةِ العِمْلاَقِ المُتَوَحِّشِ التِي تَعِيشُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ، حَيْثُ لاَ أَحَدَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا وَسَطَ مَتَاهَاتِ المَوْتِ وَالهَلاكِ...

رَكِبَ الأَمِيرُ حِصَانَهُ تَارِكًا البَلْدَةَ مُتَوَجِّهًا إِلَى النَّاحِيَةِ التِي أَشَارَت إِلَيْهَا العَجُوزُ، حَيْثُ تُوجَدُ لُونْجَا الَّتِي كَانَ طَيْفُهَا رَفِيقَ سَبِيلِهِ، كَمِصْبَاحٍ يُضِيءُ دَرْبَهُ.

لَكِنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ السَّيرِ وَعَادَ قَاصِدًا بَيْتَ أَحَدِ الشُّيُوخِ الحُكَمَاءِ، إِنَّهُ رَجُلٌ يَعْرِفُ أَسْرَارَ الحَيَاةِ، كَثِيرُ التَّجَارِبِ، رَاجِحُ العَقْلِ، جَامِعُ الأَخْبَارِ لِذَلِكَ يُسَمَّى "الشَّيْخُ المُدَبِّرُ".

قَصَّ الأميرُ حِكَايَتَهُ عَلى الشَّيخِ الحَكيمِ، فَقَـالَ لَهُ فِـي شَفَقَـةٍ وَحُنُـوٍّ:

- إنَّ طَرِيقَـكَ صَعْـبٌ، سـيُوَاجِهُكَ الـمَوْتُ كُلَّ لَحْظَـةٍ، كَـمْ مِـنْ فَـارِسٍ قَبْلَـكَ مَـاتَ وَلَـمْ يُـدْرِك لُـونْجَـا أنْصَحُـكَ بِنِسْـيَانِ هَـذِهِ الفَتَـاةِ وَالعَـودَةِ إلى أَبِيـكَ لتُسَاعِـدهُ فِـي شُـؤُونِ الحُكْـمِ..

وَقَفَ الأَمِيرُ زَهَّار قَائِلاً:

- لاَ بُـدَّ أَنْ أَصِلَ إلَيهَا مَهْمَـا كَـانَ الثَّـمَنُ...

قَالَ لَهُ الشَّيْخُ:

- إذَنْ عَلَيْكَ بِتَنْفِيذِ التَّوْجِيهَـاتِ الَّتِـي قَدَّمْتُـهَا لَكَ واحْـذَرِ الصَّخْـرَةَ العَجِيبَـةَ وَسَتَصِلُ إلَى لُونْجَـا... وَعَـادَ إلَى قَـصرْهِ حَائِـرًا بَـينَ التَّرَاجُـعِ عَـنْ فِكرتِـهِ أوْ الـمُغَامَرةِ بِحَياتِـهِ...

فِي الصَّبَـاحِ البَاكِـر اعْتَـلَى الأَمِـيرُ جَـوَادَهُ الأَدْهَـمَ، وَسَـارَ فِي رِحْلَـةٍ دَامَـتْ أَيَّامًـا وَلَيَـالٍ، قَطَـعَ خِلاَلَهَـا الـمَسَافَاتِ الطَّوِيلَةِ وَرَأَى الأَهْوَالَ الـمُرْعِبَـةَ، وَاجَهَـهَا بِشَجَـاعَـةٍ،

رَأَى الأَمِيـرُ زَهَّار قَلْعَـةً ذَاتَ شَكْـلٍ عَجِيبٍ مُرِيبٍ، وَشَـاهَـدَ الصَّخْـرَةَ العَجِيبَـةَ الَّتِـي تُفْتَـحُ وَتُغْلَـقُ بِسُرْعَـةٍ رَهِيبَـةٍ، وَفِـي السَّـمَاءِ كَانَتِ الوَطَـاوِيـطُ تُوَطْوِطُ وَتَرقُـصُ رَقْصَـةَ الـمَـوْتِ كَأَنَّهَـا تُنْـذِرُ الأَمِيرَ بِخُطُـورَةِ الأَمْـرِ، لَكِـنَّهُ اسْـتَطَاعَ أَنْ يَنْفُـذَ مِـنَ الثَّغْـرَةِ بِخِفَّـةٍ وَيَنْجُوَ مِنْ فَمِ الصَّخْرَةِ كَالبَـرْقِ، فَدَخَـلَ بِأُعْـجُوبَـةٍ خَارِقَةٍ... وَبَـدَأَ الأَمِيـرُ يَصِيحُ مُنَـادِيًـا:

- لُونْجَـا، أَيَّتُهَا الحَسْنَـاء هَيَّـا اخْـرُجِـي،،

أَطَلَّـتْ فتـاةٌ مِنَ الأَعَالِـي كَالشَّمْـسِ السَّاطِعَـةِ فِي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ،، قَائِلَـةً فِي دَلَالٍ:

- مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الغَرِيب،، وَكَيْفَ دَخَلْتَ هُنَا،،

- أَنَـا الأَمِيـرُ زَهَّار... لأَجْلِـكِ جِئْتُ رَاغِبًـا فِـي الزَّوَاج...وَهـذَا قَـلْبِـي فِـي كَفِّـي أَحْمِلُهُ لَـكِ... جِئْـتُ مِـنْ جَزَائِـرِ الأَحْـلاَم...

سُرَّتْ لُونْجَـا بِرُؤْيَتِـهِ وَأُعجِبَـتْ بِكَـلاَمِهِ فَـرَمَـت بِضفَـائِرِهَـا إِلَـى الأَرْضِ لَيَسْتَعِينَ بِهَا عَـلَى الصُّعُـودِ...

انْبَهَرَ الأَمِيرُ بِشَعْرِهَا الطَّوِيلِ، أَمْسَـكَ بِهِ وَصَعدَ إِلَيهَا...

فِـي الـمَسَاءِ عَـادَ العِمْـلاَقُ الـمُتَوَحِّشُ صاحِبُ القلعةِ، تَحَسَّـسَ الـمَـكَانَ وَأَدْرَكَ أَنَّ غريـبًا دَخَـلَ القَلْعـة، اسْـتَفسرَ عَـنْ ذَلِـك فَأَجَابَتْـهُ:

- جَائِـعٌ اقْـتَرَبَ مِـنَ الصَّخْـرَةِ طَلَبًـا لِلْقُـوتِ كَيْ لاَ يَـمُوتَ، فَقَدَّمْـتُ لَـهُ الخُبْـزَ وَاللَّبَـنَ،، ثُـمَّ انْـصَرَفَ لِحَالِهِ..

فِي الصَّبَـاحِ البَاكِـرِ خَرَجَـتْ لُـونْجَـا مَعَ الأَمِيرِ زَهَّـار عَـلَى صَهْـوَةِ جَـوَادِهِ، اسْتَيْقَـظَ العِمْلاَقُ عَلَى صَـوتِ غَلْـقِ الصخـرَةِ، فنَـادَى لُونْجَـا لكِنَّهَـا لَـمْ تُجِبه،، نَظَـرَ مِنَ النَّافِـذَةِ

فَـرَآهَا مَعَ الشَّـابِ يَـمْتَطِيانِ الجَـوَادَ...

اسْـوَدَّتِ الدُّنْيَـا أَمَـامَ عَيْنَيْـهِ فهَـرَعَ رَاكِضًـا وَالغَضَـبُ يَعْتَرِيـهِ، يَسْـبِقُهُ صَوتُـهُ الـمُزَمْجِـرُ وأَنْيَابُـهُ الطَّوِيلَةُ وَأَظَافرُهُ الـمُرْعِبَةُ..

هَـا هُـوَ يَبْحَـثُ عَـنِ الطَّرِيـقِ مِـنَ الـمَخْرَجِ الضَّيـقِ،، كَأَنَّـهُ غَرِيـبٌ عَـنِ الـمَكَانِ،، حَاوَلَ الخُـرُوجَ فَأَطْبَقَـتْ عَلَيْـهِ الصَّخْـرَةُ لِسُـمْنَتِهِ وَاضْطِـرَابِهِ الشَّدِيـدِ،،، صَـرَخَ صَرْخَـةً مُـدَوِّيَـةً ومـات.

سَارَ الجَوَادُ بالأمِير زَهَار وَلُونْجَا يَطْوِي الـمَسَافَاتِ طَيًّا...

فِـي طَرِيقِهِمَا الغَـابِـي عَلَى سَفْـحِ الجَبَـلِ شَاهَـدَا نِسرَيـن يَقْتَتِـلاَن، نِسْـرٌ قَـوِيّ يَفْتِكُ بِنِسْر ضَعِيـف، تَحَرَّكَـت فِي جَوَانِـحِ الأَمِيرِ الـمُرُوءَةُ وَرُوحُ الإِقْـدَامِ ضِـدَّ الظُّـلْـمِ، فَتَدَخَّـلَ بَيْنَهُـمَا يُرِيدُ إِنْقَـاذَ النِّسْـرِ الضَّعِيـفِ،، لَكِـنَّ النِّسْـرَ الكَبِـيرَ انْتَـهَـزَ الفُرصَـةَ وَاخْتَطَفَ الأَمِيرَ بِـمَخَالِبِهِ وَحَلَّقَ بِهِ فِي الأَجْـوَاءِ العَالِيـةِ تَارِكًـا وَرَاءَهُ لُـونْجَـا وَجَوَادَهُ،،

صَـارَتْ لُونْجَـا وَحِيـدَةً تَائِهَـةً بَعْـدَ غِيَـابِ زَهَّـار تَبْـكِي أَلَـمًا مِن لَوْعَـةِ الفِـرَاقِ، انْتَظَرَتْ عَوْدَتَـهُ أَيَّامًـا وَلَـمَّا يَئِسَـت مِـنْ ذَلـكَ رَكِبَت الحِصَـانَ لاَ تَـدْرِي وِجْهَتَـهَا، لَكِـنَّ الحِصَـانَ عَـرَفَ بِغَرِيزَتِـهِ طَرِيـقَ العَـودَةِ فَسَـارَ بِهَـا نَحْـوَ قَـصْرِ الـمَلِكِ حَزِينَـةً.

بَعْـدَ أَيَّـامٍ وَلَيَـالٍ مِـنَ السَّـيْـرِ كَسِيـرَةَ الخَـاطِـرِ اقـتَـرَبَـت مِـن القَـصْـرِ فَـتَـرَكَـتِ الحِصَـانَ بَعِيـدًا ودَخَلَـتِ القَصـرَ مُتَخَفِّـيَـةً فِـي ثِيَـابٍ رَثَّـةٍ، وطَلَـبَـت مِـنَ الحُـرَّاسِ مُسَاعَـدَتَهَا عَلَـى البَقَـاءِ وَالعَمَـلِ خَادِمَةً لَدَى الـمَلِكَةِ... فكَـانَ لَهَا مَا أَرَادَت.

كُلّ يَـوْمٍ تَجْلِـسُ لُـونْجَـا بِجَانِبِ النَّافِذَةِ،، وتَتَذَكَّرُ الأَمِيرَ الفَـارِسَ زَهّـار... تَتَسَاءَلُ:

- تُـرَى إِلَى أَيْـنَ طَـارَ بِـهِ ذَلِـكَ النِّسْـرُ؟ وَهَـلْ مَـا زَالَ حَـيًّا أَمْ وَافَـتْـهُ الـمَنِيَّـةُ؟ وَمَـرَّةً

عِنْـدَمَا كَانَـت لُونْجَا عِنْدَ النَّافِـذَةِ حَائِـرَةً مُتَسَائِلَـةً فِـي نَفْسِـهَا...

لَمَحَـت عَلَى حِيـنِ غِـرَّة نِسْـرًا يَجُوبُ سَمَاءَ القَصْرِ، إِنَّـهُ النِّسرُ الصَّغِيرُ الَّـذِي تَعَارَكَ مَعَ النِّسرِ الضَّخْمِ يُحَلِّـقُ أَمَامَـهَا فِـي حَرَكَـاتٍ تَعْبِيرِيَّـةٍ كَأَنَّهُ يُرِيـدُ تَبْلِيغَهَا رِسَالَةً...

قَفَزَت لُـونْجَـا وَهِـي تُلَـوِّحُ بِيَدِهَـا يَـمِينًا وَيَسَـارًا، وَالنِّسْرُ يُوَاصِلُ حَـرَكَاتِـهِ بِجَنَاحَيْـهِ الطَّويلَـيْن،، خَرَجَـت لُونْجَـا مِـنَ القَصْـرِ وتَبِعَـتِ النِّسْرَ فِي اتِّجَاهِـهِ، مُتَّخِـذَةً إِيَّـاهُ دَلِيلاً، وَعَـلى رَأْسِ هَضَبَـةٍ نَـزَلَ النِّسْـرُ وَأَخَـذَ يَنْظُـرُ صَـوْبَ شَـجَرَةٍ عَظِيمَـةٍ،، تَوَقَّـفَـت لُـونْجَـا وَالعَـرَقُ يَتَصَبَّـبُ مِـنْ جَبِينِهَـا.

اقْتَـرَبَت مِـن الشَّـجَرَةِ الكَبِيرَةِ... فَسَـمِعَت أَنِينًـا خَـافِتًـا،، خَفَـقَ قَلبُـهَا،، إِنَّـهُ الأَمِيـرُ زَهَّـار... أَسْرَعَـت نَحْـوَ الشَّـجَرَةِ،، لَكِـنَّ النِّسْـرَ العِمْـلاقَ كَـانَ أَسْرَعَ مِنْـهَا،، حَيْـثُ حَمَلَ الأَمِيـرَ وَحَلَّـقَ بِـه فِـي السَّمَاءِ،، فَـصَـارَت الفَتَـاةُ الحَزِينَـةُ تُلَـوِّحُ بِيَـدِهَـا مَـرَّةً أُخْرَى، صَارِخَـةً فِـي وَجْهِ الدُّنْيَـا،، سَمِعَهَا الأَمِيـرُ فَحَـاوَلَ أَنْ يُجِيبَـهَا بِأَنْفَـاسٍ مُتَقَطِّعَـةٍ، وَقَـدْ أَنْهَكَـهُ التَّعَب:

- عَلَيكِ بِإِحضَارِ كَبْشٍ سَمِينٍ وَتَرْكِـهِ عِنْدَ النَّهْـرِ، عِنْـدَمَا يَرَاهُ النِّسْرُ سَيَتـرُكُنِـي...

قَامَـت "لُونْجَـا" بِتَنْفِيـذِ وَصِيَّـةِ الأَمِيـرِ الـمَأْسُورِ عِنْـدَ النِّـسْرِ الخَاطِـفِ، فَتَحَقَّـقَ مَاقَـالَهُ، وَأَنْقَـذَتْـهُ مِـن قَبْضَـةِ الطَّائِـرِ الجَـارِحِ، لَكِـنَّ الـمِسْكِيـنَ مَـرِضَ مَرَضًـا شَـدِيدًا مَنَعَـهُ مِـن الحَرَكَـةِ.

صَـارَ زَهّـَار طَـرِيـحَ الفِـرَاشِ الَّـذِي صَنَعَـتْـهُ لَـهُ لُـونجـا مِـن أَوْرَاقِ الشَّـجَـرِ.

****

مَـرَّت الأَيَّـام فَبَـدَأ الأَمِيـرُ زَهَّـار يَتَماثَـلُ لِلشِّفَـاءِ، وَكَـانَ عِلاَجُـهُ الوَحِيـد اِمْتِصَـاصُ رَحِيـقِ الأَشْـجَارِ وَحَـبِّ الزَّيْتُـونِ المَـمْزُوج بِنَظَـرَاتِ العَطَـف وَالحَنَـان مـن لُونْجَـا..

عَـادَت الحَسـنَاءُ وَمَـعَـهَا الأَمِيـرُ الشّـابُ زَهّـار الَّـذِي دَخَـلَ المَدِينَـةَ مُتَنَكِّـرًا حَتَّى لاَ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ، وَفِـي اليَومِ المُوَالِـي لِعَوْدَتِهِمَـا طَلَبَتِ الخَادِمَـةُ لُونْجَـا مُقَابَلَـةَ المَلِكِ، فَلَـمْ يَسْمَـح لَهَـا الحَـرَسُ بِذَلِـكَ، فَأَحْـدَثَـت صَـوْتًـا مُسْتَجْـدِيا وَصَلَ مَسَامِعَ الـمَلِكِ، فَاسْتَفْسَرَ عَـن الخَـبَرِ، وَبَعْـدَ حِـينٍ أَذِنَ لَهَـا بِالدُّخُـولِ ثُـمَّ سَـأَلَهَا:

- مَا وَرَاءكِ أَيَّتُهَا الخَادِمَة؟!

- مَوْلاَي، مُنْذُ أَنْ وَطِئَتْ قَدَمَايَ هَذَا القَصْرَ لَمْ أَرَ البَسْمَةَ عَلَى شِفَاهِكُـمْ.

اسْتَغْرَبَ الـمَلِكُ قَوْلَهَا لَكِنَّهُ لَمْ يُقَاطِعْ كَلاَمَهَا... اسْتَطْرَدَت قَائِلَةً:

- سَـأَرْفَعُ بَعْـدَ قَلِيـلٍ سِتَارَ الحُـزْنِ عَـن هَـذَا القَصْـرِ وأَمْـسَحُ الـدُّمُـوعَ مِـنْ نَوَافِـذِهِ، واسـتَأْذَنَت لِلخُـرُوجِ فأَوْمَـأَ بِرَأْسِـهِ مُوَافِقًـا عَـلَى طَلَبِهَـا...

خَـرَجَـت أَمَـامَ البَـابِ وَطَـلَبَـتْ مِنَ الضَّـيـفِ الدُّخُـولَ عَلَـى الـمَلِكِ وَزَوْجَـتِـهِ...

يَـا للمُفَاجَـأَةِ السَـعِيدةِ! الـمَلِكُ وَزَوْجَتُـهُ يُشَاهِـدَانِ ابْنَهُـمَا الحَبِيـب الَّـذِي يَئِـسُوا مِـن عَودَتِـهِ، وَفِـي غَمْـرَةِ فَرْحَتِهِـم انْصَرَفَـت "لُونْجَـا" وأَصْلَحَـتْ مَظْهَـرهَا، ثُـم عَـادَتْ إِلَـى الـمَجْلِسِ الـمَلِكِي... انبَهَـرَ الجَمِيـعُ بِالعَـودَةِ، وَبَينَمَـا الفَرحَـةُ تَـمْلأُ قُلُـوبَ العَائلَـةِ، قَـالَ زَهّـار:

-إِنَّهَا لُونجَا عَرُوسِي الـمُخْتَارَة، الّتِي غِبْتُ لِأَجْلِهَا، فَمَا تَقُولُونَ؟

وَبَعْـدَ التَّـشَـاوُرِ وَافَـقَـا عَلـىَ زَوَاجِـهَـا وَأُقِيـمَـتِ الأَفْـرَاحُ فِـي البَلْـدَةِ احْـتِـفَـاءً بالـمُنَاسَبَـةِ، فَسَـعِدَ الجَميـعُ بِذَلِـكَ.

وَعَـاشَ القَـصْرُ الأَفْـرَاحَ وَاللَّيَـالِي الـمِلاَح مُحْتَضِنًـا "الأَمِـيرَ وَلُونْجَـا" فِي سَعَـادَةٍ وَهَنَـاءٍ...

❋❋❋

obeikandl.com